

حدائية فكرة المجتمع المفتوح عند كارل بوبر

أ. لخضر مذبوح*

أولا، كارل بوبر وخطاب الحدائية،

لما كانت فكرة الحدائية وثيقة الصلة بالتاريخ، وبتاريخ الأفكار التي تحدده وتهيمن عليه، يجدر بنا أولا حتى، نبرز بوضوح حدائية أفكار بوبر العلمية والسياسية أن نتعرض بشيء من الإيجاز المفيد لمكانة التاريخ في قلب المواجهة ما بين نمطين من الفلسفات: فلسفة تهيمن خصوصا، على البلدان الأنجلوسكسونية، والأخرى تهيمن على القارة أو ما يصطلح على تسميتها المدرسة الأنجلوسكسونية والمدرسة القارية.

الأثنوبولوجي وزيادة على هذا فإن عددا معتبرا من مقالات الفلسفة العامة التي تصدر اليوم، تهدف سواء إلى التنبؤ بمستقبل الإنسانية، مثلما حدث في الفترة التي ازدهرت فيها الماركسية، قصد استخلاص دلالة حداثتنا وأزمتهما الحالية(2).

إن وجود هذا التعارض بين هذين النمطين من التفكير الفلسفي، يستطیع أن يبرر فحص انتقادات بوبر المفصلة - الذي يعتبر من أشد المدافعين عن النمط الأول - الموجهة لما يسمى بالتاريخانية historicisme، التي تحتل مناقشتها ونقدها جزءا هاما في فلسفته كما سنرى.

يقول بوبر: "إنني آخر بقايا التنوير، أي أنني عقلائي أؤمن بالحقيقة، وأؤمن بالعقل البشري

فالفلسفة الأنجلوسكسونية، فلسفة عقلانية، نجد فيها الفكر العلمي والتقني، هما في نفس الوقت الموضوع الرئيسي للدراسة، وأفضل الأمثلة تتبع، والتاريخ في هذه الفلسفة علم هامشي فهو في حدود الآداب(1).

أما الفلسفة الثانية فهي على العكس وعلى الخصوص الفرنسية، فالتاريخ يمنح بديلا للفلاسفة الذين يريدون أن يبقوا مستقلين عن العمل الذي تنجزه العلوم الدقيقة. ونحن نعلم أن الفلسفة على سبيل المثال في فرنسا هي في جزء منها تاريخ للفلسفة، الإيستمولوجيا تاريخ للعلوم، وأن نجوم الأنتلجنسيا الفرنسية اليوم هم غالبا، إختصاصيون في الوصف التاريخي أو

* أستاذة بقسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري - قسنطينة.

تقرب وتعرف من الروح الكانطية أكثر، فهو يدعو إلى إبستمولوجيا بدون ذات عارفة⁽⁶⁾.

إن الحد الفاصل بين قسيمي فلسفة بوير العلم والسياسة، يمكن الوقوف عليه، من خلال مقالته التي نشرها سنة 1940 بعنوان: "ما هو الجدل؟" التي قدم فيها ثلاثيته الجدلية التي سماها منهج المحاولة واستبعاد الخطأ، التي قدم فيها جملة من الانتقادات على الجدل الهيجلي، مجردا من التغييرات التي أضافها ماركس إليه، إنطلاقا من نقده للمنهج الماهوي essentialiste، الذي يعتمده هيغل بقوله: "كل معقول واقعي، وكل واقعي معقول" فمطابقة هيغل بين الفكرة والواقع، وتخطيمه لمبدأ عدم التناقض دفع بوير إلى اعتبار جدله جدلا مغلقا، واقترح الاحتفاظ بفكرة الجدلية، مفتوحة على التحسين والتعديل والتفنيد والتكذيب بواسطة النقد والتجربة، عكس الحتمية الهيجلية الماركسية المغلقة، حسب المخطط التالي:

$$P_1 \longrightarrow TT \longrightarrow EE \longrightarrow P_2$$

حيث أن:

P_1 : ظهور المشكلة 1.

TT: محاولة نظرية لحل المشكلة.

EE: محاولة استبعاد الخطأ من النظرية المحاولة.

P_2 : مشكلة 2 متولدة عن هذا الحل.

وهكذا سيرورة العلم، فالعلم يبدأ بمشكلات، وينتهي إلى مشكلات⁽⁷⁾، ولهذا اعتمد فكرة محورية في فلسفته هي فكرة التفتح l'idée d'ouverture، بمعناها العلمي الإيستمولوجي والسياسي، كقيمة علمية وأخلاقية تحكم مؤسسات المجتمع المفتوح وأفراده، وكمبدأ ينظم حياتهم ويوجه

(...) وحين أقول إنني آخر بقايا التنوير أقصد أن رجل التنوير يتحدث بأبسط ما يستطيع من استخدام اللغة، حديثا يتسم بالوضوح والبساطة، والقوة مثل أستاذنا العظيم برتراند راسل، لأن الهدف من بساطة اللغة هو التنوير لا التسلط⁽³⁾.

بهذه العبارات يوجز بوير خطابه الحدائي الذي طوره في مسعى فلسفي سماه "العقلانية النقدية" التي رآها استكمالا وتطويرا لخطاب الأنوار، خاصة في صيغته الإنسانية المؤسسة على العقل والإيمان بالإنسان، وهي فلسفة تتسم بنظرة تفاؤلية مؤسسة على فكرة التقدم والتطور الخلاقي، سعيا لتحقيق حرية الإنسان وانعتاقه ورفاهيته وإعداده لتقبل مشاكل الحياة ومواجهتها مواجهة عقلانية واقعية⁽⁴⁾.

فبوير يعتبر فيلسوفا ثوريا بتخميناته العلمية الجسورة التي ضمنها كتابه "منطق الكشف العلمي"، وفيلسوفا إصلاحيا اجتماعيا حذرا، إن لم نقل محافظا في مؤلفاته السياسية "عقم المذهب التاريخي" "المجتمع المفتوح وأعداؤه". فكتله المجتمع المفتوح وأعداؤه يعتبر مفتاحا لمحاولته الجمع بين الديمقراطية والعلم، كمسعى لتأطير حدائيه عالمنا المعاصر، على أسس إنسانية تتجاوز خطاب الأنوار، ومن المفيد بصفة خاصة أن الدفاع الليبرالي البويري عن المجتمع الغربي وثيق الصلة بتصوراته الإيستمولوجية⁽⁵⁾.

وحدائية فكرة المجتمع المفتوح تنبثق من قيمة يشترك فيها مع الخطابات الحدائية الأخرى، وهي التخلي عن كل اليقينيات، وتجاوز ما هو قائم، لكنه لا يقع في العدمية النيتشوية واليهودية، ولا في التوتاليتارية الهيجلية الماركسية، فهي

الإذعان للرجال العظماء، لأن الرجال العظماء يمكن أن يرتكبوا أخطاء فادحة⁽¹⁰⁾. ومن جملة هؤلاء العظماء أفلاطون وهيغل وماركس، الذين اعتبرهم أعداء الديمقراطية التي يعتبرها كتشرشل النظام السياسي الأقل سوءاً، لأنها تشكل في نسق تفكيره السياسي التطوري نظام المجتمع المفتوح، المنبثق عن النظام القبلي المؤسس على النظرية العضوية البيولوجية للدولة كما صاغها أفلاطون، أول منظر اجتماعي للفكر السياسي التوتاليتاري، الذي سار على نهجه هيغل وماركس، باعتبارهم التاريخ علما وحتميات صارمة، واعتقاداً منهم أن بعنقرياتهم ونبوءاتهم يمكنهم تأويله وتفسيره، سواء بالاستناد على مفهوم العناية الإلهية أو تحقيق المطلق في التاريخ كما هو الشأن عند هيغل، أو أحداث ثورة عمالية بالنسبة لماركس، وتأتي فلسفة كارل بوبر على نقيض هذه الفلسفات، فلسفة واقعية حذرة، تحذر من التغيير الثوري العنيف.

لهذا ساهم في النقاش حولي علمية scientificité العلوم الاجتماعية، وحذر من المزاغم التي تدعي تماثلية بنيوية similarité structurelle ما بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة الاجتماعية، وبالتالي فإن القيام بتعميمات وتنبؤات في العلوم الاجتماعية، كما هو الشأن في العلوم الطبيعية، مبني على فهم خاطئ للظاهرة الاجتماعية، وتفردا وتميزها عن الظاهرة الطبيعية، يقول بوبر: "لقد أفتعنتي دراسة حذرة لهذه المشكلة، أن تنبؤات من هذا النوع تتجاوز إمكانيات المنهج العلمي، المستقبل تابع لنا، ونحن من جهتنا لا نتبع أي ضرورة تاريخية، رغم التأكيدات المعاكسة لبعض المذاهب الاجتماعية المنتشرة الآن"⁽¹¹⁾.

أعمالهم، يقول كارل بوبر: "إن المبدأ القائل بأن كل شيء متفتح على النقد. (الذي يكون بموجبه حتى هذا المبدأ في ذاته ليس مستثنى من التفتح على النقد) يقود إلى حل بسيط لمشكلة مصادر المعرفة كما أوضحتها في موضع آخر، هذه المصادر هي كل "المصادر" العقل، الخيال، الملاحظة، وكل ما يمكن ويسمح باستعماله، لكن ليس لواحد منها أي سلطة"⁽⁸⁾.

ولهذا نجده في أعماله العلمية ينحو منحاً تطورياً، ينقد الاتجاهات الوضعية المعاصرة، ويفتح على الميتافيزيقا، وفي السياسة يهاجم النزعات الكمالية والجمالية والطوباوية⁽⁹⁾. لأنها حسب رأيه نبوءات زائفة يقدمها أصحابها على أساس أنها علم، وخطأ أصحابها وتبعاته أعظم وأخطر من أخطاء العلماء الذين يتعاملون مع المادة، فإنهم بسعيهم إقامة الجنة على الأرض بنبوءاتهم سيحولون حياة الناس إلى جحيم لا يطاق، وشواهد التاريخ على ذلك قائمة كالنازية والفاشية والشيوعية والستالينية. فالحدائثة عند بوبر ليست خطاباً مهولاً ومهوساً يلعن الواقع والعالم أو مطالبة بتغييره كلية أو الفرار منه، إنها عملية تعهد للمعقولة في المسيرة العلمية والسياسية والاجتماعية، وهكذا نراه ينقد جنباً إلى جنب دعاة الأنساق الدغماتية المغلقة في العلم كالتجريبيين المناطقة، أو المتعاملون المزيّفون وأصحاب النبوءات التاريخية كأفلاطون وهيغل والرومنسيون كنيثشه وهيذرغر، يقول بوبر: "لأن قلت في هذا الكتاب كلمات قاسية حول بعض العظماء من قادة الفكر البشري، فدفعني إلى ذلك، كما أتمنى، ليس الحظ من أقدارهم، إنه ينبعث من قناعتي أننا إذا أردنا لحضارتنا البقاء، يجب علينا أن نتخلى عن عادة

العكس، تعاقب نحو تعظيم وتقديس ديني، كما آمن بذلك المؤمنون بعودة المسيح، والتعظيم الأول من هذا النوع كان يهوديا، لكنهم الفلاسفة الإغريق الكبار حسب بوبر هم الذين منحوا أول مثال منظر للتاريخانية. فمثل أفلاطون وأشباحها هي تبرير فلسفة استعمله لمعالجة التوتر الحضاري tension civilisationelle والتوعك malaise الاجتماعي السياسي الذي عاصره بالاستناد على نظرية الثبات، ومحاربته للتغير، باعتباره أن التغير يتجه دوما نحو تدهور للمثال الأصلي الأول، وهكذا، فالمجتمع القبلي يقابل في عالم المثال، إن أي تغيير له يعتبر ابتعاد عن الأصل عن المثال أي تدهورا. هكذا فتحليل هيغل وماركس وشبنغلر وتوينبي ليس تحليلا علميا: "دور العلوم هو دائما التنبؤ أو إعطاء تنبؤات يومية انطلاقا من أسس موثوقة، أما دور العلوم الاجتماعية، فهو إنتاج تنبؤات تاريخية مؤسسة على قوانين تنبجح أنها استخرجتها"⁽¹²⁾.

وهكذا ينكر بوبر إمكانية أن تكون هناك قوانين عندما يتعلق الأمر بمسار فريد مثلما هو الحال بالنسبة لتاريخ الإنسانية⁽¹³⁾ ويبقى مصرا على القول أن الكون مفتوح وأن المستقبل مفتوح أيضا⁽¹⁴⁾، إن الأفكار الجديدة التي طورها بوبر في سنوات 1960 - 1970 تثبت أصالة الإستمولوجيا التطورية البوبرية المفتوحة التي لم تكن ممكنة فقط مع القابلية للتكذيب، إن الجديد في أفكار بوبر المتأخرة هو الاهتمام الذي منحه للبيولوجيا وفروعها التابعة العلمية، ورفضه عزل نفسه مثل باحثين آخرين (التجريبيون المناطقية على سبيل المثال) في ميدان الفيزياء النظرية باعتبارها نموذجا وحيدا للعلمية scientifique، وأهمية فكرة المجتمع المفتوح، كفكرة حدائية

إن أكبر خصم في العمق لبوبر هو القرن التاسع عشر في مجمله، القرن الرومنسي واللاعقلاني، الذي اتخذ عبادة الأمة شعارا له، القرن الذي يستمد أصالته الفكرية في زعمه اكتشاف التاريخ، أي زعمه أيضا أنه فهم أيضا، ليس فقط الحياة الاجتماعية، لكن النفسية والأخلاقية، إنها تغيير تاريخيا، وأن التاريخ قوة تتجه نحو هدف خاص به، يوظف فيه الأفراد كوسائل، وأن المستقبل الموعود للإنسانية هو مستقبل الانعتاق الكلي، الذي يفترض تجاوزا راديكاليا للقيم الخاصة بمجتمع ديمقراطي وعقلاني في حالة أزمة وتوتر طبعها.

ولفهم الستالينية، يكفي قراءة كتاب "الصفير والانهائية" لكويستلر، لرؤية كيف أن الماركسيين آمنوا أن كل أخلاق ذاتية ستزول، ما دام قد بين العلم أن التاريخ سيذيب الأفراد داخل المجموع، ولفهم الفاشيات، يجب تذكر كم كانوا كثيرين المذهبيون في نهاية القرن التاسع عشر من نيتشه إلى شبنغلر الذين تنبؤوا بنهاية عالم منحط وظهور إنسان جديد، منبعث متخلص من أخلاق بائدة. وضد أوهام القرن التاسع عشر، يقوم بوبر بعودة واعية إلى فلسفة الأنوار، العقلانية، الأخلاقية، الكونية، مؤمنا بتقدم لا يستند على فكرة المصير le destin (التي تشكل محور اهتمام هيغل، نيتشه، هيدغر، ماركس) لكنه يستند على جهود البشر.

إن الاتجاهات الرومنسية، بحث عن أصلها بوبر في ماضي الفلاسفة. إنها مذاهب تاريخانية، تلك المذاهب التي تقول أن التغيير التاريخي يتم في اتجاه معين، وأنه يتعلق بعودة أبدية دورية، تتركب مع حركة إنحطاط في داخل الدورة، كما يعتقد بذلك الهندوس والإغريق. أو على

في اللاإكتمال، وعدم الرضا، والأزمة، وما يعترف به بالفعل، هو أن المجتمع المفتوح يخلق في نفس الوقت، التقدم والتوكل، ويعزل الناس ويحملهم ثقل مسؤوليات جديدة، وعند الأزمة والتوكل يحلم بعض أفرادها بالعودة إلى البراءة المفقودة، في المجتمع المغلق، ويسعون لتخطيط مستقبل لمجتمعات تجد فيه الطبيعة الإنسانية كما لها. لكن هذه الأحلام خطيرة جدا، ولن تؤدي في غالب الأحيان إلا إلى أشكال من البربرية. وهي معاكسة للتوجه الإنساني الذي هو بالنتيجة العقلانية والمعرفة، وضياح الوعي البريء. فيجب القبول إذن أن نخوض بحثا ممتدا لا منتهيا بالنسبة للمعرفة أو بالنسبة للتقدم الاجتماعي أيضا، والاستحقاق الهام لفلسفة بوبر في التاريخ هو أن نتخلي عن الحلم بالكمال⁽¹⁷⁾.

ثانياً: المجتمع المفتوح وقيمه

مفهوم المجتمع المفتوح كقابل للمجتمع المغلق، استعاره بوبر من الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون واستعمله في كتابه "المجتمع المفتوح وأعداؤه" بمعنى آخر، وهو الكتاب الذي اتخذ قرار كتابته في اليوم الذي تلقى فيه خبر دخول جيوش "هتلر" إلى النمسا؛ يقول عنه بوبر: "إنه دفاع عن الديمقراطية، في مرحلة لم يعد لها فيها أنصار كثيرون مقتنعون بها، كان كل الذين يكتبون تقريبا، أو الذين كنت على اتصال بهم، يتنبئون بنهاية الديمقراطية، وانتصار فاشية اليمين أو انتصار فاشية اليسار، ولم يكن على شفاة الكلب إلا نقاط ضعف الديمقراطية"⁽¹⁸⁾.

وليس مفهوم المجتمع المفتوح عند بوبر شكلا لنظام سياسي أو الحكومة، بقدر ما هو شكل

تؤديها مجريات الأحداث المعاصرة التي واكبتها ورافقتها، فالكسوف السياسي للشيوعية قاد إلى انقلاب على المستوى الثقافي، الذي تأثر بالأفكار التي طورها، بوبر في وقت لم يكن أحد يتصور وقتها النتيجة التي آلت إليها الشيوعية اليوم، ومهما كانت انتقادات لولر قاسية ضد التاريخانية، فإنه لم يمنع شيئا واحداً إذ يعترف أنه يلبي حاجة لا يمكن حذفها وهو صياغة تأويل عام للتاريخ، الذي يطبع المراحل الكبرى ويستخرج منها المعنى، ويحدد مرحلة في علاقتها بماضي الإنسانية، ويعطي بوبر المثال بنفسه، ويقترح تأويله الخاص المعروف جيداً: إنتقال الإنسانية من المجتمع القبلي المغلق الثباتي، الذي تهيمن عليه ذهنية سحرية إلى المجتمع المفتوح الفردي، التقدمي، المتميز بالروح النقدي. الذي يواجه فيه أفرادها مصائرهم بأنفسهم، بمسؤولية وحرية⁽¹⁵⁾. وهذا الإنتقال الذي بدأه اليونان في القرن الخامس الميلادي، الذي سببه تطور التجارة والذي سرع وتيرته الغرب الحديث، هو إنتقال إيجابي. فنحن هنا إزاء نظرية تفاؤلية للتقدم، تتعارض بصراحة مع كل النظريات التي تنظر للإنحطاط الكثيرة الإنتشار هذه الأيام⁽¹⁶⁾، سواء كانت من إلهام نيتشوي، أو هيدغري، أو مسيحي، أو ذات طبيعة إثنية أو إيكولوجية.

ففكرة المجتمع المفتوح فكرة تعارض الذين يحنون للمجتمعات التقليدية (أفلاطون مجتمع القبيلة، هيغل سيطرة الجنس الآري، ماركس المشاعية البدائية)، ويعارض الأنبياء المزيفين بهذا القرن الذين يحملون بمجتمع متناغم وشفاف هم مهندسوه. وبدفاعه عن المجتمع المفتوح، فإن بوبر يقول على العكس، يجب علينا أن نتعلم العيش

اليونانية، بدأت في القرن السادس ق م، وتبلورت وتجسدت في نظام حكم أثينا الديمقراطي سياسيا وثقافيا وعلميا، على يد شلة يسميهم كارل بوبر "الجيل العظيم"، الذي قطع حبل الوصال بالمجتمع المغلق، وهو جيل رواه لا يجمعهم إطار مرجعي واحد، ولا مشرب ثقافي واحد، لكنهم يؤمنون جميعا بالعقل الإنساني ومحدوديته وأهميته، ويحتكمون إليه في التقريب بين خلافاتهم، لأنهم يؤمنون أنهم نتائج المواجهات والمناقشات، حتى ولو لم تكن مثمرة فيما بينهم، يقول كارل بوبر: "ما أريد قوله، يمكن تلخيصه في الأطروحة التي تقول أن حضارتنا الغربية هي نتيجة الصراع أو المواجهة بين الثقافات المختلفة، وبالنتيجة، نتيجة للمواجهة بين الأطر المرجعية" (21).

وبوبر يذهب أبعد من التحليل الغربي - مركزي occidentocentrisme، وإن قال بالمعجزة اليونانية وشوط انبثاقها الداخلية، ويضيف إليها عوامل خارجية، ثقافية حضارية، كانت عاملا أساسيا فيها: "هناك تسليم واسع بأن حضارتنا التي تحت أحسن مظاهرها التي يمكن أ، توصف (...). أنها اكتسبت كثيرا من السمات، مثل الأبجدية والمسيحية، ليس فقط من خلال الصراعات ما بين الرومان والإغريق، لكن أيضا من خلال المواجهات مع اليهود والفينيقيين وحضارات أخرى في الشرق الأوسط، وأيضا من خلال الصراعات الناجمة عن الغزوات الجرمانية والإسلامية" (22).

وبوبر يؤكد أن المعجزة الإغريقية مهما استطعنا تفسيرها قد كانت ناجمة عن صراع الثقافات، فالفلاسفة الأوائل في المستعمرات الأيونية بآسيا الصغرى وجنوب إيطاليا، كانت في

للتعايش الإنساني، الذي تكون فيه حرية الأفراد واللاعنف وحماية الأقليات، وحماية الضعفاء، هي قيم أساسية⁽¹⁹⁾، تلك القيم التي يعتبرها بوبر أصبحت تحصيل حاصل في المجتمعات الغربية.

وعن فكرة المجتمع المفتوح، وقيمتها الأساسية الحرية، يعتبر بوبر أن مسارها طويل، إذ وجدت فكرة الحرية لأول مرة بأوروبا لدى هوميروس، عندما يتحدث هكتور مع أندروماك عن اليوم الذي ستسقط فيه طروادة وعن اليوم الذي يفقد فيه الطرواديون حريتهم، يتحدث عن "يوم الحرية" وعن "يوم العبودية" (20).

كانت كتب هوميروس أول الكتب بأوروبا، لقد كتبت لأول مرة سنة 550 ق م بأثينا، ووزعت في نسخ، استجلب لها بيزيستراس عبيدا متعلمين، إشتراهم وكلفهم بنسخ ملحمتي هوميروس "الأوديسا والإلياذة" في لفائف من البردي، الذي إشتراه من مصر، مخلا بذلك المادة الضرورية للكتابة، وبسرعة فائقة نشرت كتب أخرى بدورها، يقول بوبر: "لا يجب أن ننس أبدا أنه بدون سوق للكتاب لا يمكن أن يكون هناك نشر" (21)، وهكذا تطورت الآداب في أثينا، وتبعها المدن الأخرى، وغدت أثينا ديمقراطية، بعدما أصبحت ملاحم هوميروس إنجيل وأبجدية الإغريق، تعلمت أثينا القراءة، ونقلت ونشرت كتبها، ومباشرة من بعد أخذت أثينا قيادة القبائل الإغريقية في حرب التحرير ضد الفرس، وهكذا باختصار كان ميلاد فكرة الحرية بأوروبا والحضارة الأوربية حسب بوبر.

وبحس نقدي علمي ثاقب لبنية المجتمع الإغريقي القديم الذي تمثل صورته؛ المغلقة والمفتوحة، قبيلتين هما إسبرطة وأثينا، فالمعجزة

إختلاف الحكايات التفسيرية هي واحدة من الوظائف الأساسية للغة الانسانية.

الدعامة الثانية ذات تاريخ حديث نسبيا، ويبدو أنها إريقية على وجه مخصوص، وأنها ظهرت مع تأسيس الكتابة باليونان، لقد بدت مع أنكسيمندريس، ثاني فيلسوف أيوني، إنها اختراع النقد، النقاش النقدي للأساطير المختلفة التفسيرية، بغية تحسينها عن وعي. وأول أسطورة مؤسسة، كانت أسطورة هوزود "ميلاد الآلهة"، التي يعتبرها بوبر قصة متوحشة للأصل البشري، وأعمال وشرو الآلهة، وماء طاليس وقوله: "إن الأرض فوق الماء، تسبح فوقه مثل السفينة"، فنقده تلميذه وصديقه أنكسيمندريس "لا يوجد شيء يحجل الأرض في الهواء وعوض هذا فالأرض تبقى ساكنة" إن نقد أنكسيمندريس لطاليس، وبناءه لأسطورة جديدة، لم يكن ليقود لشيء، لو لم يستمر في هذا التقليد، فقد كان لكل جيل أسطوره، وهكذا يعتبر طاليس وأنكسيمندريس أول مؤسسين لتقليد مدرسي جديد التقليد النقدي la tradition critique، وهكذا فالمجتمع المفتوح مشروع تطوري، الثابت فيه قيمة الحرية والإيمان بالعقل الإنساني، مجتمع تغذيه وتنميه عقول واعية في المجتمع المتعدد المتنوع المختلف المشاريب والآراء، الذي يسعى أفراد متميزون في كل جيل وأمة، يسميهم بوبر الجيل العظيم، لازدهاره كما هو الشأن بجيل طاليس، أنكسيمندريس وزينوفان وسقراط وديمقريطس وبروتاغوراس وثيوسيديس وبركليس وهيرودوتس وهوزود، أي إلتقاء العلم والفلسفة والفن والسياسة في بؤرة متوترة دائمة من الصراع الثقافي العلمي، والاجتماعي السياسي، ومحاولة تسيير هذا الصراع وإدارته

مواجهة مع الحضارات الكبرى الشرقية، ودخلت معها في صراعات، سواء في الغرب، أين كانوا يلتقون بالصقليين وبالقرطاجيين والإيطاليين، مثل توسكان، يقول بوبر: "إن أثر الصراع الثقافي على الفلسفة ينبع من الشهادات المتوفرة لدينا عن طاليس، وهو واضح في حالة هيرقليطس، لكن الطريقة التي قاد بها الناس إلى التفكير بطريقة نقدية ظهرت بقوة في زينوفان"⁽²³⁾.

وهكذا فالدور الذي لعبه صراع الثقافات في ميلاد العلم الإغريقي، الرياضيات والفلك، معروف جيدا ويمكن حتى تخصيص الطريقة التي بموجها كانت الصراعات المختلفة خصبة. يعتبر بوبر أن أفكار الغربيين عن الحرية والديمقراطية والتسامح، وأيضا أفكار المعرفة والعلم والعقلانية، تعود جميعا إلى هذه البدايات. ويرى أن فكرة العقلانية هي أهم فكرة من ضمن هذه الأفكار جميعا. وعملية الصراع الثقافي، تساعد عند تطبيقها على مشكلة فهم عالمنا، وهكذا ميلاد العلم، والعقلانية ذات الدعامين المتساويين تقريبا، الأولى هي: الإبداع الشعري، وهي واقع سرد قصص أو صنع أساطير: إختراع حكايات تفسر العالم، هذه من أجل البداية، التي تبقى دائما ربما مشرقة وثنية، يحس الناس أنهم في قبضة قوى مجهولة، ويحاولون فهم وتفسير العالم، والحياة الإنسانية، والموت، باختلاقهم حكايات أو أساطير حول هذه القوى"⁽²⁴⁾.

إن هذه الدعامة الأولى التي يمكن أن توجد ربما كذلك أقدم من اللغة الإنسانية ذاتها، هي مهمة، وتبدو كونية: كل القبائل، كل الشعوب، لها حكايات تفسيرية هي في غالب الأحيان في صورة حكايات خيالية، ويبدو حسب بوبر أن

إذن شروط انبثاق المجتمع المفتوح وازدهاره، تتمثل في إقامة مؤسسات علمية وثقافية واجتماعية وسياسية، تعتمد على قاعدة النقاش النقدي، التي يعمل بها علماء وفلاسفة وفناون وساسة مجتمعين، وهذا التقليد روعي بإحكام في مسار تطور الحضارة الغربية (ما عدا فترة العصور الوسطى الأوربية)، فالديمقراطيات الغربية الحديثة عرفت أمثال هؤلاء العظماء، وكان لها جيلها العظيم أيضاً، كغاليليو وكبلر ونيوتن وأينشتاين وديكارت ولايبنيتز ولوك ولوتر وكانت وجونستوارت ميل ومولير وشكسبير، وقادة سياسيون ديمقراطيون، كجورج واشنطن وتشرشل وديغول.

ولطالما عانى بوبر من تهمة الليبرالية والوضعية، خاصة من لدن جماعة فرانكفورت، الذين تعاملوا مع فكره كما لو كان امتداداً لفكر أعضاء "حلقة فيينا"، نموذجاً للفكر الليبرالي، ونقاشاته الحادة مع أدورنو، التي قسمت الحاضرين في "توبنجن" إلى قسمين، إذ هاجم بوبر أدورنو باعتباره حاول استغلال هيغل وإعادة بعث أفكاره، التي يعتبرها بوبر أفكاراً عنصرية، معادية للحرية وللإنسانية، وأدورنو يتهم بوبر أنه يحاول بفلسفته الليبرالية المحافظة، الدفاع عن النظام الرأسمالي القائم، وأن منهجه الإصلاح التدرجي، يخدم هذا الهدف، ورد عليه بوبر أن المجتمع المفتوح ليس فكرة ليبرالية، فهو مفتوح على التطور، وعلى الإصلاح التدرجي، والشيء الوحيد الذي يتمسك به بوبر كقيمة ثابتة لا تغير في أسس هذا المجتمع هما فكرتان، فكرة الحرية وفكرة الديمقراطية، اللتين رأى أن بقاءهما وازدهارهما لا يكون ممكناً إلا في مجتمع مفتوح ديمقراطي.

على قاعدة المعقولة، التي تعتمد مدرسة النقاش النقدي البناء، من أمثال ديمقريطس الذي يقول: "لأن أجد تفسيراً سببياً واحداً، أفضل عندي من أن أكون ملكاً على فارس" (25)، فنحن مدينون له بملاحظة العالم الحقيقي، والإنسان المفتوح، إذ يقول: "كل واحد من الناس عالم صغير في نفسه، يجب علينا مساعدة المظلومين، لنكون أحياناً علينا ألا نظلم وألا نُظلم وألا نريد أن نظلم، الأعمال الجميلة لا الأقوال الجميلة هي التي تؤخذ بعين الاعتبار، فقر الديمقراطية أفضل من رفاهية الأرستقراطية أو الملكية، مثلما أ، الحرية أفضل من العبودية، الرجل الحكيم ينتمي إلى كل البلدان، العالم كله سكن لنفسه العظيمة" (26).

وسقراط الفيلسوف المتواضع، مؤسس الأخلاق والعقلانية، لقوله: "أعرف نفسيك بنفسك" وأنه لا يعرف شيئاً، قد حارب الرضا الذاتي والغرور العلمي، والتهور الأخلاقي، وألح أن الإنسان ليس مجرد جسد من لحم، فالإنسان توجد فيه شرارة إلهية هي عقله.

وبركليس، السياسي المتفتح، يقول: "نظامنا السياسي لا ينافس الدساتير الموجودة بالقوة في أي مكان آخر، نحن لا نحتدي بجيراننا، لكن نحاول أن نكون مثلاً يحتذى، إدارتنا ترعى الأقلية، ولهذا سميت ديمقراطية، القوانين تساوي بين الجميع في النزعات الخاصة، لكننا لا نتجاهل المطالبة بالامتياز، عندما يميز المواطن بنفسه في خدمة الدولة، أفضل من غيره، ليس كموضوع حظوة، لكن كمكافأة للاستحقاق. الفقر ليس عائقاً (...). الحرية التي ننعّم بها تمتد إلى حياتنا العادية، نحن لا نرتاب في بعضنا البعض، ولا نتضايق من جيراننا إن هو اختار طريقاً خاصاً به، لكن هذه الحرية لا تجعلنا خارجين عن سيطرة القانون" (27).

المشاكل وحلها، يتطلب تبصراً أو لنقل تأويلاً للمسار الحاضر للتاريخ، فإن مؤلف المجتمع المفتوح يعتبر هذا وهماً، بل ضاراً، كل تأكيد على أن الإمساك باتجاه ثابت للأفعال الإنسانية.

ويبقى مصراً على فكرة المجتمع المفتوح كفكرة مجردة، يفكر حسب قوله أعضاءه بعقولهم لا بدمائهم إشاره منه للنظم القائمة على القبيلة وتوابعها، الأمة والقومية... إلخ⁽²⁸⁾.

وفي مؤتمر توبنجن (1961) إتهم Hans Albert هابرماس وزملاءه من أعضاء مدرسة فرانكفورت، بجهله أن قانون حكم القيمة لا يمكن اشتقاقه من أحكام الواقع.

وحسب تيديسكو، فإن التصادم بين بوبر ومدرسة فرانكفورت، ناجم عن الاختلاف في تصور الوضع الإيديولوجي، بالفعل في الوقت الذي يعتقد أدورنو وأتباعه أن التعرف على

الهوامش

- (1) - voir: Michel Meyer: la philosophie Anglosaxone PUF, 1^{re} edition, 1994.
- (2) - voir: Karl Popper, Et la Science d'aujourd'hui, colloque de Cerisy, Aubier, 1989.
- (3) - مجلة العربي، عدد 462، مايو 1997، ص 197.
- (4) - Karl popper, la theorie de la connaissance et le probleme de la paix, in: Toute vie et résolution de problemes, Actes Sud, 1997, pp 123 - 127.
- (5) - Jacques. G. Ruelland: De l'épistémologie à la politique, Philosophie d'aujourd'hui, PUF, 1991.
- (6) - Karl Popper, la connaissance objective, traduction française edition Complex, 3^{eme} edition, 1985, pp 119 - 165.
- (7) - Karl Popper, Conjecture and réfutations, Harper tarch books. Newyork & London, 1965, pp 312 - 330.
- (8) - Ibid, pp 4 - 31.
- (9) - Karl Popper, The open society and its enemies, Volume 1, Routledge & Kegan, 1966, pp 157 - 168.
- (10) - Ibid, pp 169 - 201.
- (11) - Ibid, pp 3 - 4.
- (12) - Ibid, pp
- (13) - Ibid, introduction.
- (14) - Karl Popper, l'univers irrosulu, et l'avenirs est ouvert.
- (15) - Karl Popper, The open society and its enemies, Op Cit, pp 173 - 182.
- (16) - كما يشهد على ذلك إغراق الناشرين العرب للسوق بالمؤلفات التي تنتج في هذا المعنى، كشتينغلر وفوكوياما هذه الأيام، والكتب التي تنتبأ دينيا بانهايار العالم وانحطاطه.
- (17) - Karl Popper, The open society and its enemies, Op Cit, pp 167 - 168.
- (18) - Karl Popper, la quête innachevée, traduction française Calman - levy, 1981, pp 155 - 164. et surtout: Karl Popper, l'avenir est ouvert, Symposium de Vienne, 1983, p 165.
- (19) - Karl Popper, la leçon de ce siècle, edition 10 / 18, France, 1992, pp 95 - 124.
- (20) - Karl Popper, l'avenir est ouvert, Op Cit, pp 166 - 167.
- (21) - Ibid, pp 167 - 168.
- (22) - Karl Popper in: Karl Popper, et la science d'aujourd'hui, Op Cit, P18.
- (23) - Ibid, pp 18 - 19.
- (24) - Ibid, pp 21 - 22.
- (25) - Karl Popper, The open society and its enemies, Op Cit, pp 185 - 186.
- (26) - Ibid, pp 186 - 187.
- (27) - Ibid, pp 186.
- (28) - See: Roberta Corvi, An introduction to the thought of Karl Popper, Routledge & Kegan, 1997, p 147.